الحرب على غزّة: شظايا تأمّلات

□ سماح إدريس

إلى عينيْ لؤيْ صبح

يَعْجز القلم، وتَعْجز العين، عن متابعة الأحداث المتلاحقة في غزّة، منذ أن شنّ العدوُّ الصهيونيّ هجومَه عليها نهايةَ العام المنصرم. في ما يلي تعليقاتٌ على بعض ما شاهدتُ أو قرأتُ، يعْوزها التنظيمُ أحيانًا، وتكتسحُها العاطفةُ أحيانًا أخرى. وقد كتبتُها بين اليوم الرابع والرابع عشر من العدوان، أيْ عشيّةَ صدور قرار مجلس الأمن، آملاً في أن تساعدَني، وتساعدَ القارئَ، على استيعابِ ما يجري واتّخاذِ المواقف المناسبة.

المثقفون العرب ولومُ الضحيّة

عجبي من مثقفين وإعلاميين عرب يدينون حركةَ حماس ويحمّلونها، هي لا الاحتلالَ، مسؤوليّةَ ما يحْدث من تجويعٍ وحصارٍ أولاً، ومن تقتيلٍ ثانيًا. فماذا تقول لصحافيّ يكتب أنّ حماس «ورّطتْ مليون ونصفَ مليون فلسطينيّ بالتجويع منذ أشهر»؟[1] عبد الرحمن الراشد يتّهم حماس بأنها هي مَنْ جَوّع ويجوِّع أهلَ غزّة بعد فوزها بالانتخابات عام ٢٠٠٦. فكأنّه يريد من حماس، ومن أهل غزّة، الذين انتخبوها بكامل إرادتهم، وبحضور مراقبين دوليين، التسليمَ بالاحتلال... وإلاّ فليقاسوا الموتَ جوعًا! وهذا، لعَمري، هو المنطقُ الاستعماريُّ بامتياز، بدلاً من المنطق الذي ينتصرُ للعدل والحقّ. على أننا نسارع أيضًا إلى التذكير بأنّ حصارَ غزّة بدأ قبل فوز حماس؛[2] أيْ إنه لا علاقةَ بين فوز حماس والحصار الإسرائيليّ أصلاً، وإنما هدفُ الحصار إبقاءُ غزّة فقيرةً معدمةً، وكسرُ إرادة المقاومة.

ومن المثقفين مَن يُحمّلون قادةَ حماس، لا الجيشَ الإسرائيليّ والإدارةَ الأميركيّةَ الداعمةَ له، مسؤوليّةَ سقوط الضحايا الفلسطينيين اليوم، بسبب... قساوةِ قلوبهم وغلاظةِ إحساسهم. هكذا يتساءل علي ديوب متفجّعًا وملتاعًا إلى درجة عدم التمييز بين كم الاستفهاميّة وكم الخبريّة: «كم نهر [كذا] من الدم تحتاج عروقُكم الجافّة؟ كم موت [كذا] يكفيكم لكيْ تستيقظوا من موتكم؟ كم ضحيّة بريئة تستلزمها خطاياكم؟»[3]

ومن المثقفين مَنْ يقذفُ بمسؤوليّة الشهداء المدنيين الفلسطينيين على كاهل قادة حماس لأنّ هؤلاء... يعيشون بين الجماهير. كنّا نظنّ أنّ عيشَ القادة بين الجماهير، لا في فنادق النجوم الخمس، أمرٌ محمودٌ ومرغوب. ومع ذلك، فهل في غزّة اليوم (حيث تَقْطن أعلى كثافة سكّانيّة في العالم كما يقال) زوارقُ حبٍّ، أو مربّعاتٌ أمنيّة، أو مناطقُ محيَّدةٌ، تتيح لقادة حماس ألاّ يختلطوا بعامّة الناس؟! ألا يَعْلم أولئك المثقفون أنّ المقاومين «هم من أبناء الشعب، وليسوا جيشًا منفصلاً عنه في معسكرات،» وأنه من «الطبيعيّ أن يعيشوا بين صفوفه،» وإذا كان هذا صحيحًا في كلّ مكان، «فإنه في غزّة أمرٌ مسلَّمٌ به»؟[4]

لكنّ لوْمَ المثقفين «المعتدلين» الأشدَّ إنّما ينصبُّ على صواريخ القسّام؛ فهم يزعمون أنّ هذه الصواريخ هي التي سبّبت الحربَ الحاليّةَ على غزّة. هؤلاء أسمّيهم «مثقفي الذريعة» لأنهم لا يبْرعون إلاّ في تكرار لازمةٍ واحدةٍ، بلا ملل ولا كلل، وهي أنّ المقاومة تقدِّم الذريعةَ للعدوّ. فإذا اجتاحت إسرائيلُ لبنانَ في حزيران ١٩٨٢، فذلك لأنّ الفلسطينيين قَتلوا السفيرَ الإسرائيليّ في بريطانيا قبل أيّام من ذلك الاجتياح (تبيَّن لاحقًا أنه لم يمت). وإذا شنّتْ إسرائيل الاعتداءاتِ على الفلسطينيين عامَ ٢٠٠٠ وما بعدَه، فلأنّ عرفات قدّم لها الذريعةَ حين رَفض الانصياعَ للعرض

١ ـ عبد الرحمن الراشد، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.

٢ ـ Norman Finkelstein, A Debate with Martin Indyk on Democracy Now (with Amy Goodman), Jan 8, 2009.

٣ ـ جريدة **المستقبل**، ٢٠٠٩/١/٤.

٤ ـ عزمي بشارة، **الجزيرة نت**، ٢٠٠٩/١/١.

«السخيّ» في كامپ دايڤيد ٢ (تبيَّنَ لاحقًا أنه وافق على بنودٍ كثيرةٍ أخرى ورفض ما يخصّ القدسَ والأقصى تحديدًا).[١] وإذا غزَتِ الولاياتُ المتحدةُ العراقَ عامَ ٢٠٠٣، فذلك لأنّ صدّامًا قدَّم لها الذريعةَ حين لم يَسْمحْ لها بالتفتيش عن أسلحة دماره الشامل ومصادرتها (تبيَّنَ لاحقًا أنه لم يمتلكْ أيّاً منها). وإذا اعتدت إسرائيلُ على لبنان ودمّرتْه خلال ٣٣ يومًا من صيف ٢٠٠٦، فذلك لأنّ حزبَ الله أسَرَ جنديَيْن إسرائيليَيْن (ليبادلَ بهم أسرى لبنانيين يَقْبعون منذ عقود في الزنازين الإسرائيليّة). مثقّفو الذريعة منتشرون في أكثر المنابر الصحفيّة والإعلاميّة العربيّة، ولاسيّما في صحيفتَي **الشرق الأوسط** (عبد الرحمن الراشد، علي سالم، طارق الحميد،...) و**الحياة** (حازم صاغيّة،...)، وجرائد ثورة الأرز ومواقعها الإلكترونيّة (**النهار**، ليبانون ناو،...) في لبنان. هؤلاء المثقفون إمّا نسُوا تاريخَ الصهيونيّة في بلادنا، بل تاريخَ الإمبرياليّة في العالم، وإمّا يتناسوْن ما طالعوه طوال سنوات، من أجل صبّ جام غضبهم على حركة حماس وصواريخِها والمحورِ السوريّ ـ الإيرانيّ. هؤلاء نسُوا أنّ القوّةَ **تَخْلقُ** الذريعةَ دومًا، ويتناسوْن أبدًا أنّ الأحداثَ التي تلت عمليّاتِ الغزو والاحتلال تُظْهر أنّ الغزاةَ أعدّوا العدّةَ لعملهم قبل زمنٍ طويل. فمثلاً، تنقل صحيفةُ **هاارتس** عن وزير الدفاع الإسرائيليّ إيهود باراك في عددها الصادر في ٢٠٠٨/٣/١ أنه يفكّر في غزو غزّة؛ وكان ذلك منذ عشرة شهور! واعترفتْ إسرائيل بأنها كانت تخطّط لغزو لبنان عامَ ٢٠٠٦ قبل تموّز بشهور، بصرف النظر عن أسْر الجنديَيْن الإسرائيليَيْن (بل لعلّ «ذريعةَ» الأسْر جَنّبتْ حزبَ الله فعلاً ضربةً مفاجئةً لم تستطع حركةُ حماس أن تتجنّبَها للأسف حين اغتال العدوُّ، في نهاية العام ٢٠٠٨، ١٣٠ شرطيّاً بضربةٍ غادرة). كما تتحدّث مقالاتٌ رصينةٌ عن أنّ إسرائيل نفسَها كانت تجنِّد عملاءَها للهجوم على أحياء اليهود ومعابدِهم (في العراق نهايةَ الأربعينيّات مثلاً) من أجل دفعهم إلى الهجرة إلى «أرض الميعاد» أو لتسويغ اعتداءاتها اللاحقة على العرب.[٢]

الطريف أنّ حجّةَ هؤلاء المثقفين للمطالبة بوقف صواريخ القسّام هي أنها... «عبثيّة» و«استعراضيّة»،[٣] خلافًا للصواريخ الإسرائيليّة والأميركيّة، التي لم تحظَ بمثل اهتمامهم وهجائهم. وقد يخال المرءُ أنّ أولئك المثقفين يطالبون المقاومةَ الفلسطينيّةَ بامتلاك أسلحة **أنجعَ** وأقلَّ عبثيّةً واستعراضيّةً. وفي هذه الحال فإنّ على الراشد وأضرابِه أن يختاروا حلاً من اثنيْن: إمّا أن يَدْعوا الأنظمةَ التي يؤيّدونها ويعملون في منابرها (ولاسيّما السعوديّة والكويت) إلى تزويد المقاومة الفلسطينيّة (وهي سُنّية، أيْ لا تدْخل، والحمدُ لله، ضمن الهلال الشيعيّ الكريه) بأسلحةٍ تفْتك بالمعتدين الإسرائيليين؛ وإما أن يطالبوا المقاومةَ بترسيخ تحالفها مع إيران وسوريا وسائر محور الشرّ كيْ تحصلَ منها على شهاب ١٠ وفجر ٢٠ وبدر ٣٠ وزلزال ٤٠.. وربما المهدي إنفينيتي. فالاستسلامُ ليس حلاً مقبولاً أمام مَنْ يرفض الاحتلالَ، و«السلامُ» الذي صنعتْه سلطةُ أوسلو لم يأتِ بشيءٍ على ما سنَذْكر.

وفي هذا الصدد لا بدّ من التوقّف عند سببٍ آخر يقدّمه بعضُ المثقفين العرب لإدانة الضحيّة، وهي هنا حركةُ حماس (وقبلها حزبُ الله ـ لا الأنظمةُ الوهّابيّةُ مثلاً، ويا لَلغرابة): إنه عقيدتُها الدينيّة «المتطرّفة» و«إيمانُها بالغيْب.» ولكنْ ألم يحدثْ قبل أعوام أمرٌ شبيهٌ، وإنْ بدرجاتٍ أقلَّ هولاً، مع ياسر عرفات، المعتدل، اللاغيْبيّ، ملِكِ العقلانيّة وفنِّ الممكن، بحسب مثقفي الذريعة؟ أكانت إسرائيل ستُحْجم عن تدمير غزّة لو كانت تحت سلطة قوًى «غير غيبيّة» مثل «فتح» أو «فدا»... إلاّ إذا تحوّلتا إلى كتيبةٍ تَعْمل عند دحلان بأوامر دايتون؟

حركةُ حماس فصيلٌ إسلاميٌّ مقاوم، قد لا نطيق إيديولوجيّتَه الدينيّةَ ولا مواقفَه من المرأة أو الثقافةِ أو الفنّ. مَنْ يذكر، مثلاً، كيف مَنعتْ وزارةُ الثقافة الحمساويّة كتابَ **قولْ يا طير** بحجّة تضمُّنه عباراتٍ وكلماتٍ (مثل «بزّ») «تخْدش» الحياءَ، مع أنه من عيون التراث الشعبيّ الفلسطينيّ؟[٤] ومَنْ منّا يدافع عن غياب مظاهر أساسيّة من مظاهر الثقافة والفنّ في غزّةَ قبل العدوان الحاليّ، بل قبل سريان الحصار الفعليّ؟ علينا ألاّ نَسْكتَ عن أيّ مسٍّ بالحريّات، أيّاً كانت الذرائع، إنْ كنّا نؤْمن بأنّ النضالَ الوطنيّ يَهْدف أيضًا، وربّما في المقام الأول، إلى تحقيق حريّة الفرد الحقيقيّة (يجْدر التنويهُ إلى أنّ ذلك ليس من بين أسباب انتقاد الأنظمة «الإسلامويّة» العربيّة لحماس). ولكنّ حركة حماس انتُخبتْ ديمقراطيّاً عامَ ٢٠٠٦؛ بل لعلّها الحكومةُ العربيّةُ الوحيدةُ المنتخَبةُ ديمقراطيّاً في عالمنا العربيّ اليوم! وهذا يعني أنّ غالبيّة الشعب الفلسطينيّ في مناطق ٦٧، لا حماسَ وحدها، هي التي قرّرت المقاومة، وهي التي قرّرتْ معاقبةَ نهج اوسلو وسلطته وفسادِه. إنّ غالبيّةَ الشعب الفلسطينيّ في تلك المناطق، لا حركةَ حماس وحدها، هي التي قرّرتْ أنّ المفاوضات لم تؤدِّ إلى شيء، بل تضاعفت المستوطناتُ، وازداد تهويدُ القدس، ولم تتوقّف الاعتقالاتُ ولا الاغتيالاتُ، طوال فترات المفاوضات مع العدوّ. حماس، أيّاً ما

---

١ ـ تقول تانيا رينهارت إنه لا يمْكن أحدًا، وإنْ كان متعاونًا مع الاحتلال، أن يرضى بالتخلّي عن الأماكن المقدّسة. ويرى تشومسكي أنّ الأنظمة العربيّة ما كانت ستغضّ الطرفَ عن هذه المسألة الدينيّة الحسّاسة خوفًا من غضبة جماهيرها. راجع:

Znet Commentry, 2/10/2000; **Al-Ahram Weekly Online**, 2-8/11/2000.

٢ ـ أنظر: شرون قومش، «صِدامُ العرب اليهود بالصهيونيّة،» ترجمة سماح إدريس، مجلة الآداب ٧-٢٠٠٨/٩.

٣ ـ اقرأْ مثلاً عبد الرحمن الراشد، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٣٠.

٤ ـ تراجعت الوزارةُ عن قرارها تحت الضغط الشعبيّ، بل نَفَتْ أن تكون قد اتّخذته أصلاً!

أبو مازن يقمع المتظاهرين في الضفّة رغم أنّ (أمْ **لأنْ**؟) اندلاعَ انتفاضةٍ جديدةٍ هناك سيكون أبرز دعم لغزّة.

كان بغضّنا للإخوان المسلمين، حركةٌ معاديةٌ لإسرائيل، وهي تُقصف وتُذبح **لأنّها** كذلك. ولو ارتضتِ الإسلامَ المعتدلَ (إقرأْ: الموالي لأميركا) أو اليسارَ الليبراليّ (إقرأْ: يسارَ الديكور)، لكانت اليومَ في محور الخيْر، إلى جانب كرزاي وعبدالله ١ وعبدالله ٢ والطالباني.

عن الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة

الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة؟ طبعًا! ولكنْ أيّة وحدة؟

الواضح أنّ غزوَ غزّة تمّ بمعرفة سلطة عبّاس (أو تواطُئها، واللهُ أعلم). والواضح أنّ أبا مازن يَعتقل الآن المئات من عناصر حماس وحركة الجهاد الإسلاميّ، ولم يُعلنْ وقفَ المفاوضات مع الجزّار الإسرائيليّ. والأسوأ أنّه اليوم يَقمع المتظاهرين في بيرزيت وبيت لحم ورام الله والخليل ونابلس، رغم أنّ (أمْ **لأنْ**؟) اندلاعَ انتفاضةٍ جديدةٍ في الضفّة سيكون أبرزَ دعمٍ لأهل غزّة. وفي هذا الصدد يكتب د. عبد الستّار قاسم منتقدًا سلطةَ عبّاس، أو مَنْ أسماهم «أعوانَ دايتون» ما يلي:

«أشدُّ ما تقشعرّ له الأبدانُ أنّ أكبرَ مظاهرةٍ فلسطينيّةٍ كانت في الأرض المحتلّة عامَ ٤٨، في حين أنّ أصغرَ مظاهرةٍ كانت في نابلس، كبرى مدن الضفّة الغربيّة التي تحْكمها سلطةٌ فلسطينيّة! فلقد خرجتْ مظاهرةٌ سخنين تتحدّى الصهاينة؛ بينما أحاطت أجهزةُ الأمن الفلسطينيّة بمظاهرة نابلس... فهل إسرائيل أحرصُ على حريّة شعب فلسطين من سلطة رام الله؟!»[١]

أفكّر وأنا أقرأ خبرَ قمع عبّاس للمتظاهرين: لم يَقتلِ الثورةَ الفلسطينيّةَ والوحدةَ الوطنيّةَ الفلسطينيّةَ مثلُ هذه السلطةِ العرجاء. عرفات استجاب معظمَ مطالب إسرائيل، ولكنّه حوصر ومات (مسمومًا ربّما). وعبّاس فشل، رغم اجتماعاته المتكرّرة مع أولمرت، في إزالة أيٍّ من الحواجز الإسرائيليّة الـ ٦٤٠، أو تفكيكِ أيٍّ من المستوطنات. إدوارد سعيد كان على حقّ في ما كتبه عن سلطة أوسلو. سلطة أوسلو، القادمة من تونس، هي التي قتلت الانتفاضةَ الأولى (أحدَ أعظم الإنجازات الشعبيّة العالميّة، لا العربيّة فقط). وسلطةُ أوسلو هي أهمُّ ما أنجزتْه إسرائيلُ منذ تأسيسها، لأنّ العدوّ ضَمِنَ من خلالها تخلّي منظمة التحرير عن ٧٨٪ من فلسطين مقابلَ «مظاهر» دولةٍ على أقلّ من ٢٢٪ منها وتأجيلِ (إقرأْ: إلغاء) حقّ العودة لملايين الفلسطينيين في المَهاجر. ولقد حَوّلتْ أوسلو منظمةَ التحرير من حركة تحرّرٍ إلى سلطةٍ تَقْمع شعبَها لقاءَ وهْم السيادة والاستقلال. ليْت سلطةَ أوسلو (أكان الشهيد سمير قصير سيتساءل، وهو يرى تطويقَ التظاهرات في الضفّة، «عسكر على مين»؟)، وليْت حكومةَ حماس (أين هي هذه الحكومة؟)، تَحلاّن نفسيْهما وتُعلنان أنّ فلسطين محتلّةٌ من أقصاها إلى أقصاها. ليْت منظمةَ التحرير تعود إلى الوجود، ولكنْ بعد إصلاحها إصلاحًا جذريّاً، لا محاصصاتيّاً، فتعبّئ شعبَها وفق برنامجٍ جديدٍ على درب انتفاضةٍ ثالثة.

١ ـ مقال وُزّع على الإنترنت، ٢٠٠٩/١/٤. الجدير ذكرُه أنّه في ٢٠٠٩/١/٢٣، أيْ بعد كتابة هذا المقال، تمّ تفجيرُ سيّارة قاسم في نابلس.

ولكنْ هل سلطةُ أوسلو راغبةٌ في ذلك؟ يبدو أنّ ثمة تململاً داخل حركة فتح من سياسة السلطة. فها هو قدّورة فارس مثلا يصرّح بأنّه طوال ١٨ عامًا كان جزءًا من العمليّة السلميّة مع إسرائيل «ولكنْ ماذا كسبنا؟ المزيدَ من المستوطنات، والمزيدَ من أعمال الحفر تحت المسجد الأقصى، والمزيدَ من السجناء الفلسطينيين؟!... إنّ إسرائيل تريد إلحاقَ المهانة والذلّ بالشعب الفلسطينيّ.»[١] نبيل شعث نفسُه تحدّث قبل أيّام، على قناة الجزيرة، بنبرةٍ مناقضةٍ لنبرته السابقة حين كان مايزال أحدَ زعماء التفاوض العبثيّ. أما عبّاس زكي في لبنان، فلم نعد نعْرفُ ما يميّز خطابَه من خطاب أسامة حمدان، ممثّلِ حماس، رغم أننا قبل عام، أثناء معارك نهر البارد، لم نكن نميّز خطابَه من خطاب... فؤاد السنيورة. الأمرُ الجيّدُ في هذا المجال (ورُبَّ ضارّةٍ نافعة)، إذنْ، هو أنّ جزءًا من «فتح» يتململ؛ فلقد وضعت الحربُ على غزّة حركةَ فتح «على المحكّ... فإمّا أن تشتبكَ مع العدوّ أو تنتهي!»[٢]

الوحدة الوطنيّة الفلسطينيّة؟ عال! ولكنّ الكلمة المفتاح هنا هي «الوطنيّة» لا «الوحدة.» فليست كلُّ وحدة، بعُجَرِها وبُجَرِها، مرغوبًا فيها، خلافًا لما يعِظ رجالُ أديانِنا أيّامَ الجمعة والأحد، وإنما الوحدة المطلوبة هي تلك الموجَّهةُ إلى العدوّ الإسرائيليّ ـ الأميركيّ ومشاريع الشرق الأوسط الجديد: إنها الوحدةُ المبنيّةُ على أساس التخلّي عن وهْم «الدولة» وبريقِ «السلطة،» والإعدادِ لبرنامج يزاوج بين مختلف أشكال المقاومة. فإذا كان الكفاحُ المسلّح متعذّرًا في هذه المرحلة، فعلى منظّمة التحرير أن تضع برنامجًا للمقاومة الشعبيّة: انتفاضة داخليّة، عصيان مدنيّ شامل، العمل في صفوف الجاليات العربيّة وأنصار المقاومة في العالم على مقاطعة إسرائيل وسحبِ الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها. أما المساعي الديبلوماسيّة، فإنْ كان لا بدّ منها، فلكيْ تعزِّز المقاومةَ، لا لتكون بديلاً منها. وللحديث في هذا الموضوع صلة.

مصر: الشعب والنّظام

مَنْ يراقبْ تظاهراتِ الشعب المصريّ يحسّ بأنْ لا شعبَ في العالم يَشْعر هذه الأيّامَ بمثل الذلّ والإهانة اللذيْن يشعر بهما شعبُ مصر. لم أشهدْ حرقةً في العيون، ولا غصّةً في الحناجر، كحرقة المصريين وغصّتِهم في هذه اللحظات. إنهم يحسّون بأنهم مشاركون في حصار أطفال غزّة، ويحاولون ـ بدمعهم وصراخهم ـ أن يقولوا إنّ مبارك ليس منهم، وإنهم مستاؤون منه، وإنهم عاجزون عن فتح معبر رفح، وإنّ محاولات الشوفينيين المصريين (من أمثال الوزير أحمد أبي الغيط) لن تدفعَهم إلى اعتبار تظاهراتنا أمام السفارات المصريّة في بيروت ودمشق والرباط... عملاً ضدّ مصر وشعب مصر.

آلافُ المصريين اليوم يَشْتبهون في ما بات يَشْتبه به ملايينُ الناس: أنّ رئيسَ الاستخبارات المصريّة السيّد عمر سليمان ضَلّل حركةَ حماس حين «طمأنها،» قبيْل الضربة الجويّة الإسرائيليّة التي أوْدت بحياة ١٣٠ شرطيّاً فلسطينيّاً، أنّ إسرائيل لن تعتدي. آلافُ المصريين اليوم لن يُقْنعَهم عبد الرحمن الراشد حين يزعم أنّ «حماس لا تريد أن تتحمّل مسؤوليّة الكارثة» التي حلّت على غزّة «فوَجَدتْ أنّ الهجومَ على مصر خيرُ سياسةٍ دفاعيّة،» وذلك «في إطار معركةٍ مستمرّةٍ منذ أشهر من قِبل حلف سوريّة وإيران ضدّ مصر!»[٣] آلافُ المصريين اليوم لا يصدّقون ما كتبه الزميل جورج ناصيف من أنّ مصر، رغم رفضها فتحَ رفح، «تبقى مصرَ»، وأنّ «جهادَها التاريخيّ في نصرة فلسطين محفورٌ في الذاكرة»[٤]؛ فهم يعْلمون أنّ إحدى مصائب الفلسطينيين الكبرى بدأتْ في كامب دايڤيد وفي انسحاب مصر الرسميّة من التزاماتها العربيّة الطبيعيّة تجاه لبنان وفلسطين والسودان والعراق.

في خضمّ التواطؤ الرسميّ المصريّ تَصْدح أصواتُ مثقفي مصر الشرفاء. تقرأ بيانَ «اللجنة المصريّة لمناهضة الاستعمار والصهيونيّة» فيلْفتكَ ـ إلى جانب المطالبة بوقف كلّ أشكال التطبيع، ووقفِ تصدير الغاز والبترول إلى إسرائيل، وطردِ السفيريْن الصهيونييْن من القاهرة وعمّان، وسحبِ السفيريْن المصريّ والأردنيّ من الكيان الصهيونيّ ـ تسفيهُ اللجنة لحجّة نظام مبارك بعدم فتح معبر رفح، ألا وهي التزامُه بعودة المراقبين الدوليين وسلطةِ عبّاس إلى ذلك المعبر. وتتساءل: إنْ كان هذا «الالتزامُ» أقوى من التزامه العربيّ والإنسانيّ، أفيكون أقوى من التزامه بالأمن الوطنيّ المصريّ نفسِه على أساس أنّ غزّة ركنٌ أساسيٌّ في هذا الأمن؟ ثم تتذكّر أنّ الأردن وسوريا استقبلا ملايينَ العراقيين في السنوات الأخيرة، وأنّ باكستان شَرّعتْ حدودَها أمام أكثر من مليونيْ أفغانيّ، وأنّ السودان استوعب أكثرَ من أربعة ملايين أريتريّ وأثيوبيّ وأوغنديّ.[٥] ثم تنظر إلى موقف تركيا ـ تركيا غيرِ العربيّة، بل تركيا الطامحةِ إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبيّ ـ وتتساءل من جديد: أيُعقل أن تشنّ مصرُ العربيّةُ الرسميّةُ هجومًا على حماس وتغلقَ المعبرَ العربيَّ الوحيدَ أمام الفلسطينيين، في حين تتخطّى تركيا ارتباطاتِها بإسرائيل ليعلنَ رئيسُ وزرائها انحيازَه إلى أهل غزّة واعتبارَه ما يجري ضدّها بقعةً سوداءَ في تاريخ اليهود والبشريّة؟ أيُعقل أن يَطردَ رئيسُ فنزويلا السفيرَ

---

١ ـ في برنامج «الحدث»، محطّة أل. بي. سي، ٢٠٠٩/١/٣.

٢ ـ زكريّا محمد، **منتديات الجزيرة توك**، ٢٠٠٩/١/٩.

٣ ـ جريدة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٢٩.

٤ ـ جريدة **النهار**، ٢٠٠٩/١/٤.

٥ ـ عبد الباري عطوان، صحيفة **القدس العربيّ**، ٢٠٠٩/١/٧.

أيُعقل أن يَطْرد شافيز السفيرَ الإسرائيليّ من بلاده، في حين يحتفظ نظامُ مصر بسفير إسرائيل في قلب القاهرة؟

الإسرائيليّ من بلاده، في حين يحتفظ نظامُ مصر بسفير إسرائيل في قلب القاهرة ويَعتقل مئاتِ المتظاهرين المطالبين بطرده؟ حقّاً، لقد صَدَقَ غسّان كنفاني حين كتب في **عائد إلى حيفا**: «إننا حين نقفُ مع الإنسان، فذلك شيءٌ لا علاقةَ له بالدم واللحم وتذاكرِ الهويّة وجوازاتِ السفر»!

غير أنّ اللجنة المذكورة ليست وحدها في موقفها ذاك. فهناك مروحةٌ واسعةٌ من المثقّفين الذين يشرّفون مصرَ الآن، ويزيلون وصمةَ العار التي أَلْحَقَها بها نظامُها. وها قد صدر بيانٌ في ٢٠٠٨/١٢/٢٩ وقّعتْه خيرةُ مثقّفي مصر وإعلاميّيها وناشطيها وفنّانيها، ومن بينهم بهاء طاهر وصُنْع الله إبراهيم ومحسنة توفيق وطارق البِشْري وحمدي قنديل وفهمي هويْدي ورضوى عاشور وفتحيّة العسّال وأحمد بهاء الدين شعبان وأحمد الخميسي وسيّد بحراوي وأشرف بيّومي وجمال فهمي ومحمد السعيد إدريس وأمين إسكندر وأبو العُلا ماضي، وفيه يعلنون الأهدافَ نفسَها التي رأيناها في بيان اللجنة أعلاه، فضلاً عن «تأييدهم القويّ والصلب للمقاومة الفلسطينيّة الباسلة.» الموقّعون، وغالبيّتُهم الساحقةُ من اليسار القوميّ («الخشبيّ» بلغة يسارِ الحريرِ والديكور اليوم)، لم يغلّبوا نزعاتِهم الإيديولوجيّةَ على مصالح الأمّة وفلسطين، فلم يُحْجِموا عن دعم حماس رغم خلاف أكثرهم مع توجّهاتها الدينيّة.

وإلى جانب البيانيْن جَهَرَ صحافيّون مصريّون لامعون بمعارضتهم لموقف مصر عبر افتتاحيّات صحفهم. فأعرب عبدالله السنّاوي في جريدة **العربي** عن عدم اقتناعه بأنّ النظام المصريّ غيرُ متورّط في «توفير غطاءٍ عربيّ للعدوان» منذ أن أَطلقتْ وزيرةُ الخارجيّة الإسرائيليّة ليڤني، قبل ثلاثة أيّامٍ من بدء العدوان على غزّة، ومن فوق منصّة قصر الرئاسة المصريّة بالذات، تهديداتِها ضدّ حماس. وذهب عبد الحليم قنديل إلى تأكيد «اشتراك» النظام المصريّ في الحرب، متّهمًا مبارك بأنه «يذلّ مصرَ ويُهينها ويدوسُها بنعال الأمن المركزيّ،» وواصفًا أبا الغيط ـ وهو إلى جوار ليڤني حين هَدّدتْ حماس ـ بـ «الأرنب المبلول»! ولا يملك المرء إلاّ أن يزهو بشجاعة هذا الصحافيّ الكبير، الذي سبق لرجال النظام أن خطفوه، وعرّوْه من ملابسه (على ما سمعتُ) إمعانًا في إهانته كما توهّموا، ورموْا به في الصحراء، عقابًا له على مجاهرته بمعارضة مبارك ومعارضة عزمِه توريثَ ابنه الحكْمَ!

والحقّ أنّ أمام مثقفي مصر ومناضليها مهمّةً صعبةً لا تقتصر على مواجهة النظام وأجهزته البوليسيّة، بل تمتدّ إلى مواجهة عددٍ لا يستهان به من مثقّفي مصر الآخرين. فلقد تجنّد إلى جانب النظام المذكور مثقفون وكتّابٌ متسعودون ومتخلجنون ومطبّعون ويساريّون/قوميّون سابقون، أشدُّهم تزويرًا للحقائق: المطبِّعُ الأكبر علي سالم. وإلاّ فماذا تقول عن زعمه أنّ سببَ هجوم حماس على

النظام المصريّ هو أنّ قادتَها «يَعتبرون مصرَ أرضًا فلسطينيّةً يجب تحريرُها من الفلسطينيين»؟![1] والمؤسف أن يدافع كاتبٌ يساريٌّ سابقٌ بمستوى صلاح عيسى عن أبي الغيط (في برنامج «البيت بيتك» على الفضائيّة المصريّة) إلى حدٍّ يقارب التماهي مع جليسه محمد بسيوني، السفيرِ المصريّ السابقِ في... تل أبيب.[2] ولكنْ حين تصبح «الحداثةُ» و«بناءُ الدولة» هدفًا مقدَّسًا في ذاته، يفوق هدفَ التحرير ومقاومةِ الاحتلال، بدلاً من أن يتوازى معه (ولا نقول يتخطّاه)، فماذا سنتوقّع إلاّ نُسَخًا مصريّةً معدَّلةً ومنقّحةً أحيانًا من إلياس عطاالله (اللبنانيّ) وفخري كريم (العراقيّ)؟ أمّا عادل إمام، الذي كان قد دان وجودَ السفارة الإسرائيليّة في قلب القاهرة، وذلك في فيلمه الشهير «السفارة في العمارة،» فقد استنكر التظاهراتِ والإضراباتِ لأنها «تُضرّ باقتصاد بلادنا،» وانتقد شعارات «بالروح بالدم نفديكِ يا فلسطين.»[3] وكلُّ ذلك كان سيبدو أمورًا قابلةً للنقاش لو قَدّم السيّد إمام بديلاً لفلسطينيّي غزّة غيرَ الاستسلام، ولو لم يَعطفْ كلامَه ذاك على لوْم القيادات الفلسطينيّة لأنها لم تأخذْ «تحذيرَ» القيادات المصريّة من الهجمات الإسرائيليّة على محمل الجدّ، ولو أنّه ـ على الأقلّ ـ طالب بفتح معبر رفح أو... بإغلاقِ السفارة في العمارة!

التظاهرات العربيّة اليوم

وما دمنا قد ذكرنا انتقادَ عادل إمام للتظاهرات، فلنتجرّأْ على الاعتراف، ولكنْ من منطلق تأييدها والمشاركة فيها على الدوام، بأنّ معظمَها يعْوزها الإبداعُ. الهتافاتُ نفسُها. الشعاراتُ نفسُها. اليافطاتُ نفسُها. لكننا، مع ذلك، نشاركُ فيها. أحيانًا على مضض، وأحيانًا بحماس. على مضض؟ لأننا سئمنا ترددَ القديم منذ عشرات السنين. وبحماس؟ حسنًا، لأننا نحنّ إلى القديم! ذلكم تناقضٌ لا بدّ أن يَشْعر به كلُّ مَنْ تخطّى الأربعين مثلي وشارك في التظاهرات منذ عام ١٩٧٣ (تظاهرتي الأولى حصلتْ أمام مستشفى البربير، وكنتُ في الحادية عشرة من عمري، وكان شعارُها الأبرز: «سحقًا سحقًا بالصُّبّاطْ للّي فكّوا الارتباطْ!». أكان منتظر الزيْدي بيننا، أو في مظاهرةٍ شبيهةٍ في بغداد؟).

التظاهرة ليست مجرّدَ فشّة خلق أو تنفيسٍ عن مشاعرَ محتقنة. إنها، قبل كلّ شيء، كسرٌ لجدار الخوف الذي فرضه النظامُ الرسميُّ العربيُّ علينا، إلاّ حين يكون هو مَنْ نظّمها (ومع ذلك، فإنّ بالإمكان، في هذه الحالة نفسها، «تسريبَ» بعض الرسائل المعارضة، بفضل الاحتشاد وفورةِ العواطف). والتظاهرة هي التعبيرُ الجماعيُّ الأوسعُ عن آراء الناس حين تغيب الانتخاباتُ النزيهةُ وتغدو البرلماناتُ العربيّةُ نسخةً عن السلطات الحاكمة. والأهمّ أنّ التظاهرة فرصةٌ متجدّدةٌ للتضامن الشعبيّ وراء أهدافٍ محدّدة.

التظاهرة في الوطن العربيّ والعالم الإسلامي، اليومَ، عنوانُها فلسطين والمقاومةُ الفلسطينيّة. لكنّ ذلك ليس إلا العنوانَ الظاهر؛ فخلفَه عناوينُ مبعثرةٌ أخرى: شتمُ الرئيس، شتمُ البوليس، شتمُ الفساد، شتمُ التخاذل، شتمُ الأنظمة القُطْريّة التي تبيع «القضيّةَ» كي تبقى على الكرسيّ. أفكّر في ذلك وأنا أسير وأشتم النظامَ الفلانيّ والرئيسَ العلاّنيّ. أتذكّر مقالَ أنسي الحاجّ: «الحرّية هي فعْلُ النفس المتأمّلة، لا تنفيسُ احتقانِ الشارع. الصراخ تغطيةٌ لا تصريحٌ، والصارخون أقلُّ توجّعًا من الجالسين وحدهم في عذابهم، وأقلُّ صدقًا، وأقلُّ جدوى.»[4] أهذا ما يظنّ شاعرُنا أننا، معشرَ المتظاهرين، نَفْعله: نصْرخ، وننفّس عن احتقاننا؟ أيظنّنا أقلّ توجّعًا من صاحب «النفس المتأمّلة» (ولا أتحدّث، فقط، عمّن أُغمي عليه ودخل المستشفى جرّاءَ تنشّق الغاز المسيِّل للدموع كما حدث مع رفيقي د. هشام البستاني قبل أيّام في عمّان، ولا عمّن جُرح أو كُسرتْ ضلوعُه، أو سُجِنَ وأُهينَ، وما بَدّلَ تبديلاً)؟ أيريد مِن كلّ هذه الملايين في العالم أن تجلسَ في بيوتها وتمارسَ «فعلَ النفس المتأمّلة» إزاء مصير الفلسطينيين ليكون فعلُها أكثرَ «جدوى»؟ أكنّا سنكون أسعدَ وأقوى في صيف ٢٠٠٦، مثلاً، لو بقي العالمُ في بيته يمارس «فعلَ النفس المتأمّلة»؟ ألا يعتقد أنّ التظاهرات في العالم تُرْسِل، على أقلّ تقدير، رسائلَ متنوّعةَ الدلالات إلى أنظمتها، وإلى إسرائيل، وإلى الشعب الفلسطينيّ؟ ألم تؤثّر التظاهراتُ في العالم في سقوط نظام الأپارتهايد في جنوب أفريقيا، والاستعمار الفرنسيّ في الجزائر مثلاً، إلى جانب أساليبَ أخرى كالعمل المسلّح؟ كيف غاب كلُّ ذلك عن بال شاعرٍ كبيرٍ مثل الحاجّ يشْعر بأدقّ اختلاجاتِ الروح والجسد؟ كيف يذمّ المظاهرات، وحين يجامل المتظاهرين فبشكلٍ أبويّ فوقيّ من قبيل: «من المؤكّد أنّ بين الصارخين صادقين لا يَعْرفون غيرَ هذه اللغة وسيلةً للتعبير»؟ مَنْ يُبلغ أنسي الحاجّ أنّ مِنْ بين الصارخين مَن يعْرف لغاتٍ كثيرةً، بما فيها لغةُ الشعر؟ ومَنْ ينْبِئه بأنّ الانتصارَ للعدالة قد لا يحتاج إلى أيّة «لغةٍ» بالمفهوم النخبويّ المتعارَفِ عليه؟

ومع ذلك، فإنّ أنسي قد يكون على جانبٍ من الصواب لو اقتصرت التظاهراتُ على الهتاف والشتم مثلاً (ألاحظتم كم مرةً وردتْ كلمة «شَتْم» في مطلع المقطع السابق؟). إنّ أهميّة التظاهرات، من حيث فائدتها العمليّة، هي في كونها جزءًا من

---

١ ـ صحيفة **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٨/١٢/٣١.

٢ ـ راجع: جبريل محمد، موقع **كنعان**، ٢٠٠٩/١/٣.

٣ ـ جريدة **المصريّ اليوم**، ٢٠٠٨/١٢/٣٠.

٤ ـ **الأخبار**، ٢٠٠٩/١/٢.

هل تعطي منظّمات الـ NGOs السلاح لنساء السودان لـ «تمكينهنّ» ضدّ إسرائيل وأميركا؟!

حراكٍ شعبيّ أوسع يُسْهم في «تقرير سياسات» البلاد العربيّة.[1] ففي التظاهرات قد يتمّ توزيعُ أدبيّات مقاطعة الشركات الداعمة لإسرائيل، أو نسجُ الصداقات الشخصيّة التي قد تؤدّي لاحقًا إلى نشاطاتٍ سياسيّةٍ مشتركة (وتنسيباتٍ حزبيّة)، أو التنبيهُ إلى العلاقة الوثيقة بين العدوانيّة الإسرائيليّة ـ الأميركيّة والقمع الرسميّ العربيّ، أو عشرات القضايا الأخرى. ومن أسفٍ أنّ كثيرًا من ناشطينا لا يستغلّون هذه المناسباتِ شبهَ النادرة لنشر التوعية في ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم.

ولكنْ لو اقتصرْنا على الناحية السياسيّة بالمعنى الضيّق نفسه، وعلى فلسطين تحديدًا، فإنّ تظاهراتنا، كما ذكرتُ سابقًا، يَنْقصها الإبداعُ. وقد خَرَقَ هذا الحكمَ العامَّ في بيروت مؤخّرًا تظاهرتان. الأولى تظاهرةُ الأكفان التي حملتْ شعارًا واحدًا: «كلّنا غزّة،» وأعادت إلى بيروت، وبزخمٍ وصخبٍ لائقيْن بتاريخها، طابعَها الفلسطينيَّ العربيَّ العريقَ من خلال صوت محمود درويش الهادر وأناشيدِ الثورة الفلسطينيّة قبل مرحلة بيروت ١٩٨٢ وبُعيْدها (راجع أدناه). والثانية العرضُ البصريّ ـ السمعيّ الذي أقامته حركةُ الشعب أمام السفارة المصريّة. لكنّ العرض البصريّ فشل، للأسف، بسبب الأضواء الكاشفة المسلّطة فوق المبنى المجاور للسفارة؛ وكان ينبغي على المنظّمين أن يقيموا «بروفا» قبل العرض الفعليّ.

نساء الخرطوم

من أقسى (وأروع) المشاهد التي رأيتُها على التلفزيون مشهدُ نساء السودان يتظاهرْنَ أمام السفارة المصريّة، ثم السفارة الأميركيّة. كنّ يبكين على أطفال غزّة كما لو كانوا أطفالَهنّ. قدّمن حليهنّ تبرّعًا للمقاومة الفلسطينيّة. لكنهنّ، وهنا الروعة، كنّ يطالبن أيضًا بتنحّي الرؤساء العرب عن كراسيهم، وبإعطائهنّ سلاحَهم ليحاربن به بدلاً منهم.

أتأمّلهنّ دامعَ العينيْن. أقول في نفسي إنّ هاته النسوة لسن في حاجةٍ إلى منظّمات الـ أن. جي. أوزْ ليتعلّمن «تمكينَ» المرأة: ففيهنّ من السخط والألم والقهر والدمع والغضبِ على أنظمتهنّ وأشباهِ «رجالها» ما يكفي من قوّةٍ ليقرّرن حملَ السلاحَ نصرةً لفلسطين وفضحًا للرجولة الرسميّة العربيّة.

أشكّ، أشكّ فعلاً، في أن توافقَ منظّماتُ «الأنجزة» على تمويل المتظاهرات السودانيّات من أجل التدرّب على السلاح، مثلاً، لقتال إسرائيل والولايات المتحدة. ذلك أنّ «التمكين» يقتصر في عرف تلك المنظّمات، كما يبدو، على محاربة النظام البطريركيّ العربيّ... لا محاربة أسيادِه الأميركيين وحلفائهم الإسرائيليين!

١ ـ ماجد كيّالي، صحيفة **الحياة**، ٢٠٠٩/١/٤.

بيروت الفلسطينيّة

أمشي مع المتظاهرين في بيروت باتجاه السفارة المصريّة. الأعلام الفلسطينيّة والكوفيّات الفلسطينيّة تحفّ بنا من كلّ جانب: في الحمرا، وفردان، وكورنيش المزرعة. هنا كان مكتبُ منظّمة التحرير: شفيق الحوت لم يعد فيه، لكنّ ثقلَه الأخلاقيّ والقوميّ يَنْشر ظلالَه عليه إلى اليوم، رغم أوسلو. مقابلَه، إلى اليسار، كان مكتبُ مجلة **الهدف** في السابق. أرى غسّان كنفاني يخْرج إلى الشرفة يُحيّينا ويَرْشقنا بالبرتقال والبرقوق. تتقدّم مسيرةُ الأكفان. اليسار في طليعة المنظّمين: حركةُ الشعب، اتحادُ الشباب الديمقراطيّ، قطاعُ الطلاّب في الحزب الشيوعيّ، يساريّون مستقلّون، إلى جانب ناشطي الحزب القوميّ. نصل إلى مشارف الطريق الجديدة. أقلتُ الطريقَ الجديدة؟!

تَصْدح أناشيدُ ما قبل الخروج الثمانينيّ: «طالِعْلكْ يا عدوّي طالعْ من كلّ بيت وحارة وشارع.» «فدائيّة، فدائيّة، ثورة ثورة شعبيّة.» «كلاشينكوف خلّي رصاصَك بالعالي.» «طَلّ سلاحي من جراحي يا ثورتنا طَلّ سلاحي.» تلتها، وامتزجتْ بها، أغاني ما بعد الخروج، وعلى رأسها: «إشهدْ يا عالمْ علينا وعلى بيروت، إشهدْ للحرب الشعبيّة.» إلى اليسار تقع البنايةُ التي كنتُ أسكن فيها مراهقًا: بناية إسكندراني رقم ٣. الشهيد أبو جهاد كان يَسْكن تحتنا. في البناية نفسها، كان يَسْكن أنيس النقّاش، الذي صافحتُه قبل قليل، وها هو يسير غيرَ بعيدٍ عنّي. بيروت تعود فلسطينيّة، أيْ: بيروت تعود بيروت!

يقترب منّي صالح عرقجي ليُخْبرَني بأنهم كانوا في تظاهرةٍ صباحيّةٍ أمام مسجد الإمام عليّ في قلب الطريق الجديدة. صالح يتحدّث مفتخرًا بقوميّته وسُنّيّته. السُّنّة لن يكونوا إلاّ مع فلسطين، يقول. فجأةً، أتذكّر أنني سُنّيّ. غير أنني لا أفتخر بذلك؛ فقد طلّقتُ مذهبيّتي منذ أن قرأتُ سهيل وغسّان ورئيف خوري، وتبعتُ الحكيم جورج. لكنني لم أستطعْ أن أكْبحَ نشوةً دفينةً: ها إنّ تَحَكُّمَ الانعزال والمال السعوديّ ببعض سُنّةِ بيروت قد تقهقر... ولو لساعاتٍ أو أيّام.

شكرًا فلسطين!

الدِّينُ والتظاهرات: شيخٌ... وشيخ

نقلتْ صحيفةُ **الحياة** السبتَ الماضي عن رئيس المجلس الأعلى للقضاء في السعوديّة الشيخ صالح اللحيدان قولَه، خلال محاضرةٍ ألقاها الجمعة في الرياض، إنّ التظاهرات «استنكارٌ غوغائيّ، إذ إنّ علماءَ النفس وَصفوا جمهورَ المظاهرات بمن لا عقلَ له.» وأضاف: «حتى إذا لم تَشْهدِ المظاهراتُ أعمالاً تخريبيّة، فهي تصدّ الناسَ عن ذكْرِ الله.»

هذا وقد اعتبر البعضُ فتوى اللحيدان بمثابة ردٍّ رسميّ سعوديّ على الشيخ عائض القرني، الذي قيل إنّ السلطات السعوديّة اعتقلتْه بسبب إصداره فتوى يومَ الأحد بضرب المصالح الإسرائيليّة في كلّ مكان نصرةً للشعب الفلسطينيّ، مضيفًا: «يجب أن يكونوا [الإسرائيليون] أهدافًا وتسيلَ دماؤهم، كما تسيلُ دماءُ إخواننا الفلسطينيين.»[1]

فتأمّلوا!

سوريا

يعتقد سياسيّو ١٤ آذار (أمثال فارس سعيْد) أنهم يُحْرجون خصومَهم حين يسألونهم: لماذا تطالبون مصرَ بفتح معبر رفح ولا تطالبون سوريا بفتح جبهة الجولان؟

الحقّ أنّ هذا الكلامَ يُحْرج أنصارَ ٨ آذار فعلاً. إذ كيف بإمكان أيٍّ كان أن يبرِّرَ ألاّ تطْلقَ السلطاتُ السوريّةُ طوال ٣٥ سنة قذيفةً على إسرائيل من الجولان، بصرف النظر عن دعمها الكبير لحزب الله وبعض فصائل المقاومة الفلسطينيّة؟ وكيف يُمْكن تبريرُ المفاوضات السوريّة غير المباشرة... ومع رئيس وزراء إسرائيليّ منتهي الصلاحيّة؟

لكنْ كيف يردّ ١٤ آذار على أناسٍ مثلنا طالبوا سوريا في السابق، ويطالبونها اليومَ، بفتح جبهتها فعلاً ووقفِ المفاوضات؟ إنّ معسكر ٨ آذار يفتقر حقّاً إلى المبدئيّة والصدقيّة إنِ اقتصرتْ مناشداتُه على النظام المصريّ، وتجاهلت النظامَ السوريّ. بل إنّ ٨ آذار في موقفه هذا يعطي خصومَه اللبنانيين فرصةَ التفلّت من إدانة النظام المصريّ، حليفِهم وحليفِ حليفهم الأكبر: الجزّار الأميركيّ.

بين لبنان ٢٠٠٦ وفلسطين اليوم

في صيف ٢٠٠٦ غادرتْ مئاتُ العائلات الجنوبَ والضاحيةَ، فوَجدتْ بيوتًا وأحضانًا دافئةً في كثيرٍ من أرجاء لبنان، ولاسيّما في بيوت و«مناطق» أنصار ميشال عون وسليمان فرنجيّة، وفي سوريا. وكان ذلك عاملاً أساسيّاً في صمود المقاومة اللبنانيّة، إذ سَمح لها بالتفرّغ للقتال وهي متيقّنةٌ من أنّ شعبَها في أمان.

أما اليوم، فأين يَذْهب أطفالُ غزّة ومدنيّوها؟ مصر مغلقةٌ في وجوههم. الضفّة الغربيّة مغلقة. فلسطين ٤٨ مغلقة. قد يتمكّن مقاتلو المقاومة من الصمود أسابيعَ، لكنْ ماذا يفعلون بالمدنيين مع نقص الطعام والدواء والوقود؟

على المدى البعيد ستعمّق إسرائيلُ كراهيةَ العرب لها، وللسلام معها. لكنْ كيف الصمودُ الآن وشعبُ المقاتلين يموت؟ ومن جديدٍ أفكّر: غبيٌّ مَنْ يحمّل حركةَ حماس

---

١ ـ موقع **سوبرنت** ٠٧٧٧٠٥٠٠.

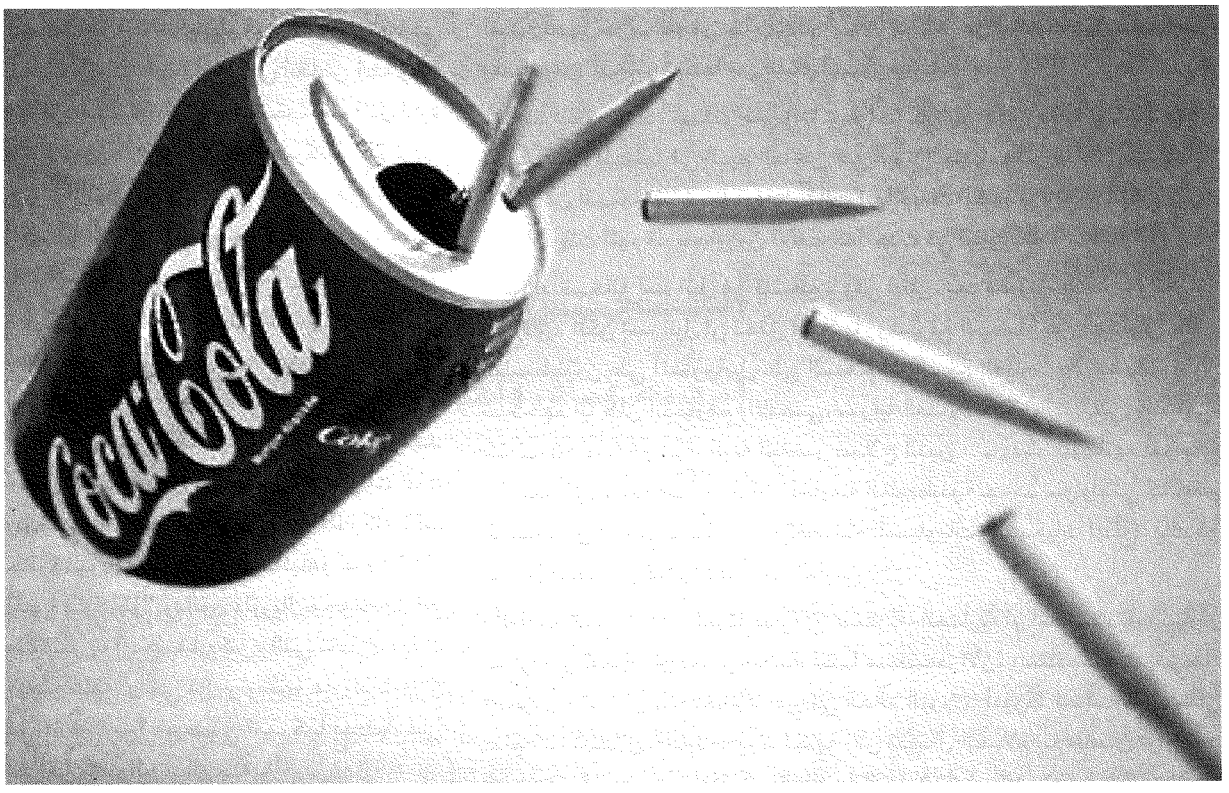

هل يريدون مقاومةً غير مسلّحة؟ إذنْ، فليقاطعوا الشركاتِ الداعمةَ لإسرائيل!

مسؤوليّةَ عدم تأمين ما يَلْزم للمدنيين؛ ذلك لأنه يتجاهل الحصارَ المضروبَ على القطاع منذ ما قبل انتخابها، وهو ما منعها فعليّاً من تأمين مقوّمات الصمود المعيشيّ لفترة طويلة. ولكنْ، مع تزايد الشهداء، أقول: ليْت هدنةً ما تحصل الآن، من دون تنازلاتٍ فلسطينيّةٍ جذريّة، ولو ليومين، من أجل إسعاف الجرحى ودفنِ الشهداء. أما العودة إلى «الهدنة» الكاذبة التي سادت شهورًا قبل العدوان الأخير، فهي قبولٌ بما يسمّيه آفي شلايْم «اللاإنماء المتعمَّد.»[1] إنْ لم تكن قبولاً بالقتل البطيء. علي أبو نعمة على حقّ حين يكتب:

«في ظلّ هدنةٍ على الطراز الإسرائيليّ يحقّ للفلسطينيين أن يبقوا صامتين، في الوقت الذي تجوّعهم فيه إسرائيلُ وتقتلهم وتَسْتعمر أرضَهم بعنف. فإسرائيل لم تكتفِ بحظر الطعام والدواء [خلال شهور الهدنة المزعومة]... بل هي مصمّمةٌ على تجويع العقول: فبسبب الحصار، ليس ثمة حبرٌ، ولا ورقٌ، ولا صمغٌ، من أجل طباعة الكتب لأطفال المدارس.»[2]

المقاطعة

استمعتُ في اليوم الحادي عشر للحرب إلى برنامج «بكلّ جرأة» (أل. بي. سي، ٢٠٠٩/١/٦). أسامة حمدان، ممثّلُ حماس في لبنان، هادئ، رزينٌ، وبخاصةٍ حين يواجه يساريّاً سابقًا كهشام ملْحم، أو مدرّعةً من الكلمات «الرشّاشة» تُدْعى عُقاب صقر. صقر يتحدّث عن ضرورة القيام بمقاومةٍ غير مسلّحة، ويضْرب مثالَ غاندي. الله أكبر! هل مثقفُ الحريري الآن يؤيّد المقاطعةَ مثلاً، التي كانت إحدى أبرز وسائل غاندي للتحرّر من الاحتلال البريطانيّ؟ أيدعو صقر، مثلاً، إلى مقاطعة البضائع الداعمة لإسرائيل التي غصّت وتغصّ بإعلاناتها شاشَتا المستقبل والـ أل.بي.سي؟ إذنْ، فليدعُ معنا إلى مقاطعة الشركات التالية إلى حين تخلّيها عن دعم كيان العدوّ اقتصاديّاً وسياحيّاً ورياضيّاً. وسأركّز الآن على بعض الشركات الموجودة في لبنان، على أن أُفردَ قريبًا مقالاً طويلاً لهذا الموضوع:

١ ـ بيرغر كينغ، التي افتتحتْ فرعًا في مستوطنة معالي أدوميم، خلافًا للقانون الدوليّ. ٢ ـ ماكدونالدز، التي تساعد إسرائيلَ من خلال التبرّعات التي تقدّمها إليها مكاتبُها المحليّةُ هناك والشركةُ الأمُّ في شيكاغو (إذ هي شريكٌ لـ «الاتحاد اليهوديّ/الصندوق اليهوديّ الموحّد»)، وافتتحتْ منذ سنوات فرعًا في المستوطنة الألمانيّة في القدس في بيت الفلسطينيّة ماري الدادا التي كانت قد طُردتْ منه عامَ ١٩٤٨. ٣ ـ كوكاكولا، التي اشترت «مياه نيفيوت» الإسرائيليّة (٤٠٪ من سوق المياه المعبّأة في إسرائيل)، و«مخامرَ الجولان» في الجولان المحتلّ، وستور ألاينس

---

١ ـ "Deliberate de-development"; see Avi Shlaim, **The Guardian**, Jan 7, 2009.

٢ ـ www.electronicintifada.net, 27/12/2008.

الحاسوبيّة الإسرائيليّة، وبَنَتْ مصنعًا في مستوطنة كريات غات (على أنقاض الفالوجة وعراق المنشيّة)، وترْعى منتخبَ إسرائيل لكرة السلّة ومهرجانَ آراد للجاز، وشركتُها الأمّ ترعى فرعَ «الاتحاد اليهوديّ الموحّد في أتلانتا الكبرى» المشارك في توطين اليهود في فلسطين.

٤ ـ إيستيه لودر، التي اشترت معظمَ أسهم شركة جيروزالم كابيتال ستوديوز، وأكثرَ من نصف شركة دلتا ٣ الإسرائيليتيْن. ٥ ـ نستله، التي اشترت ٥٠،١٪ من شركة أوسم الإسرائيليّة للأغذية، وتدير مصنعًا في سديروت (النجد سابقًا)، ولها مشروعاتٌ كبرى في كريات غات وناخشوليم (الطنطورة سابقًا). ولذلك كلّه تلقّت جائزةَ اليوبيل الذهبيّ من ناتنانياهو عامَ ١٩٩٨، أسوةً بكوكاكولا ودانون ولوريال وجونسون آند جونسون. ٦ ـ ستاربكس، التي تشارك ديليك الإسرائيليّة، والتي قال رئيسُها هارولد شولتز في ٢٠٠٢/٤/٤ «بوصفي أميركيّاً يهوديّاً، فإنّ التزامي بإسرائيل عالٍ جدّاً.»[١]

ولا بدّ من أعود إلى هذا الموضوع بالتفصيل كما وعدتُ، لكنّ المهمّ أن نؤكّد هنا أنّ المعلومات موثّقة في ما يخصّ دعمَ هذه الشركات (إضافةً إلى شركاتٍ أخرى مثل جنرال إلكتريك، وهاسْبرو، ومايكروسوفت، وساره لي، وفيليب موريس، وكاترپيلر، وأنتل،...) للكيان الصهيونيّ، وهو دعمٌ يدرّ عليه بلايينَ الدولارات ويُسْهم في تخفيف الأعباء الاقتصاديّة عنه ويدفعه إلى التركيز على المجهود الحربيّ ضدّ فلسطين ولبنان بشكلٍ خاصّ.

خاتمة موقّتة

الصحافيّ والمحلّل الفرنسيّ العسكريّ ريشار لابڤيبر يقول إنّ لدى حركة حماس وبقيّة الفصائل حوالى خمسة عشر ألف مقاتل في غزّة حاليّاً، إضافةً إلى وحدةٍ خاصةٍ تقدَّر بحوالى ثلاثة آلاف مقاتل، «وهذه الوحدة مدرَّبة على يد عماد مغنيّة، وتَستخدم نفسَ أساليب القتال التي استخدمها حزبُ الله في حرب عام ٢٠٠٦، فضلاً عن امتلاكها لأسلحةٍ جيّدة وكميّاتٍ من الذخائر تُمكّنها من القتال لشهورٍ طويلة.»[٢]

مَشاهدُ القتل تزداد. تسألني نايْ (١٠ سنوات) كلَّ ليلة: «كم واحدًا صاروا، بابا؟» لم أعُدْ أعُدّ، قلتُ لها في اليوم العاشر. في اليوم الحادي عشر سألتني من جديد. حاولتُ أن أُفهمَها أننا لسنا أرقامًا. قالت إنها فهمتْ. لكنها في اليوم التالي كرّرت السؤالَ. قلتُ إنهم قد يتجاوزون الألفَ، كما حدث في لبنان عام ٢٠٠٦.[٣]

سيزداد ضحايا إسرائيل في فلسطين، وفي لبنان، بعد سوريا، ومصر، والعراق، والأردن... لكنّ إسرائيل لن تحقّقَ أهدافَها، وسيُرفعُ الحصارُ عن غزّة، ولن ينقلبَ الفلسطينيّون على المقاومة بل على السلام المزيَّف مع القتلة، ولن يسلِّم المقاتلون سلاحَهم أيّاً كان انتماؤهم (الأقصى، سرايا القدس، كتائب أبي علي مصطفى، كتائب المقاومة الوطنيّة، ألوية الناصر صلاح الدين... ـ وذكرُ تنوّعاتهم أمرٌ بالغُ الأهميّة كي لا يتوهّمنّ أحدٌ أنّ المقاومة الفلسطينيّة جسدٌ مونوليثيٌّ كالنظام الديكتاتوريّ العربيّ يسْهل جرُّه وإخضاعُه للمساومات والتسويات المذلّة). ذلك هو الدرسُ الأبسطُ، والأكثرُ بدهيّةً، في التاريخ.

والمقاومة تتّخذ أشكالاً كثيرة: مدنيّةً أو عسكريّة، أنصاريّةً أو استشهاديّة، دينيّةً أو يساريّةً أو قوميّة، هوجاءَ أو منظّمة، لكنها ستصمد الآن، وستنتصر في زمنٍ ما، وسيزول الاحتلالُ (كم احتلالاً بقي في العالم اليوم؟). أميركا احتلّت أفغانستان عامَ ٢٠٠١ خلال مدةٍ قصيرة، لكنها الآن تتوسّل السلامَ مع طالبان. واحتلّت العراقَ في أيّام قصيرة عام ٢٠٠٣، لكنها اليوم لا تَعْرف كيف تخرج بأقلّ عددٍ من قتلاها. وإسرائيل طردت الشعبَ الفلسطينيّ من أرضه قبل ستّين عامًا، وطردتْ فصائلَه من بيروت قبل ستّة وعشرين عامًا، فنَبَتَتْ في وجهها حركاتُ مقاومةٍ كثيرة، وانتفاضتان، وحكومةٌ منتخبةٌ معاديةٌ لها في قلب فلسطين. أسوأ سيناريوهات هذه الحرب على غزّة، بعد ازدياد عدد الضحايا، هو أن تحتلّها إسرائيلُ وتسلّمها إلى سلطة عبّاس و/أو عصابات الدحلان. ولكنّ السيناريو الجديد لن يصمدَ طويلاً، وستعود المقاومةُ أكثرَ شراسةً.

أما نحن، عربَ الخارج، فعلينا تطويرُ مقاوماتنا لأنظمتنا المستسلمة أو العميلة أو الكاذبة أو النذلة (تنطبق جميعُ الصفات معًا على عددٍ منها). وعلينا تحديثُ أشكال تضامننا مع فلسطين، كي نشكّلَ ما أسماه كلوڤيس مقصود «مرجعيّةً عربيّةً موثوقًا بها»[٤] تكون بديلاً من أنظمتنا ومؤسّساتنا العربيّة المهترئة: بديلاً يليق بشعبنا وتضحياته في كلّ مكان.

بيروت

سماح إدريس

كاتب من لبنان. وقد نشرتْ نسخةً من هذه المقالة في جريدة **الأخبار**.

١ ـ من أجل معلومات بالغة التفصيل عن أبرز الشركات الداعمة لإسرائيل، وكيفيّة هذا الدعم، راجعْ وثائق «حملة مقاطعة داعمي إسرائيل/لبنان» ومقالات ناشطيها على موقع مجلة الآداب: www.adabmag.com

٢ ـ جريدة **الدستور**، ٢٠٠٩/١/٨.

٣ ـ كُتبت هذه المقالةُ قبل نهاية الحرب، التي بلغ عددُ ضحاياها الفلسطينيين أكثر من ١٣٥٠ شهيدًا.

٤ ـ **النهار**، ٢٠٠٩/١/١١.